هلال – إلى حسن التأليف الذي يزيد المعنى وضوحًا وشرفًا ، أما سوء التأليف ورداءة الرصف والتركيب فإنها تؤدي إلى التعمية ، وإذا كان المعنى ساميًا ورصف الكلام رديا ، لم يوجد له قبول ، وإذا كان المعنى وسطًا ورصف الكلام جيدًا ، كان أحسن موقعًا وأطيب مستمعًا ، فهو بمنزلة العِقْد ، إذا جُعلت خَرَزة منه إلى ما يليق بها – كان رائعًا ، وإذا اختل النظم فضُمَّت الحبَّة منه إلى ما لا يليق بها قلَّ قَدْرُهُ . وحسن الرصف أن توضع الألفاظ في مواضعها ، وتُمكَّن في أماكنها ، ولا يستخدم فيها التقديم والتأخير والحذف والزيادة إلا بحيث لا يفسد الكلام ، ولا يعمي المعنى ، وبحيث تضم كل لفظة إلى شكلها ، وتضاف إلى لِفْقِها [1] .

ويبدو مفهومُ التأليف هنا قريبًا من مفهوم النظم عند الجرجاني ؛ ذلك أن عبد القاهر قد ساوى بين الأمرين ، ففي حديثه عن إعجاز القرآن يؤكِّد أنه يرجع إلى « النظم والتأليف ؛ لأنه ليس من بعد ما أبطلنا أن يكون فيه إلا النظم ، وإذا ثبت أنه في النظم والتأليف ، وكنا قد علمنا أن ليس النظم شيئًا غير توخّي معاني النحو وأحكامه فيما بين الكلم ، وأنا إن بقينا الدهر نجهد أفكارنا حتى نعلم للكلمة المفردة سِلْكًا ينظمها ، وجامعًا يجمع شملها ويؤلفها ، ويجعل بعضها بسبب من بعض ، غير توخي معاني النحو وأحكامه فيها – طلبنا ما كل محال دونه . » [2]

وبهذا الإدراك للمستوى التركيبي يتجاوز الجرجاني حدودَ اللفظة المفرَدة ، بل يكاد لا يعطيها من الأهمية إلا بمقدار دورها في خَلْق النظم ، ذلك أن اللفظة لا تتميز بحُسْن ذاتي ، وإنما يتحقق لها ذلك من خلال

(١) أبو هلال : الصناعتين ، ص ١٥٤ . (٢) الجرجاني : دلائل الإعجاز ، ص ٣٦٠ .